﴿ ... مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ فى الدنيا ، فلماذا نسى أنها موقوتة العمر ؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن فى الآخرة ؟ . عليك أن تعلم أنك فى هذه الدنيا ، خليفة فى الأرض ، ومادمنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلابد أن تكون لنا غاية متحدة ؛ لأن كل شىء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية ، فالغاية الأخيرة هى لقاء الله ؛ لأن النهاية المتساوية فى الكون هى الموت ليسلمنا لحياة ثانية ، فالذى يستكبر عن آيات الله هو من دخل فى صفقة خاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان فى الدنيا قليل ، وزمن الأخرة لا نهاية له . وعمر الإنسان فى الدنيا مظنون غير متيقن ، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الأخرة متيقنة ، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأعراف)

وأصحاب النار . يعنى أن يصاحب ويلازم المذنب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه ؛ لأن النار على إلف بالعاصين ، وهى التى تتساءل:﴿ هل من مزيد ﴾ ؟ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

﴿اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۝٣٧﴾

و﴿ فمن أظلم ﴾ تأتى على صيغة السؤال الذى لن تكون إجابته إلا الإقرار . ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ؛ لأنه أولاً ظلم نفسه ، وظلم أمته ، وأول ظلم النفس أن يرتضى حياة زائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزار ما يفعلون ؛ لأنه قد افترى على الله كذباً. ﴿ أو كذب بآياته ﴾ .

أى قوَّل الله ما لم يقله ، أو كذَّب ما قاله الله ، وكلا الأمرين مساوٍ للآخر . والآية ـ كما نعلم ـ هى الأمر العجيب ، والآيات أُطلقت فى القرآن على معانٍ متعددة ؛ فالحق يقول :

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وكذلك أطلقت على المعجزات التى يرسلها الله تأييداً لرسله .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فالآيات هنا هى المعجزات أى الأمور العجيبة .

وحدثنا القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

فالآية إذن هى الشيء العجيب وهى تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استيعابها إلى حقائق الوجود وإلى استيفائها لقضايا الكون

كله تقول لنفسك : هذا شيء عجيب ؛ لأن الذى جاءت على لسانه هذه الآيات نبى أمى ، ماعرف عنه أنه زاول تعلماً ، وماجربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً أوله رياضة فى كلام ، وبعد ذلك ماجرب حكم أمم ، ومادرس تاريخ الأمم حتى يستنبط القوانين التى أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهب بمنهجها إلى الفرس ، وكانت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجىء الرسالة مع سيدنا رسول الله ﷺ يتخلص فى نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس ، وبعد أن جاءت رسالته ﷺ جاء بنظام يجمع أمم العالم كلها ، ثم ينجح فى أدارة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وعجيبة .

وكذلك الآيات الكونية التى نجدها تتميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل فى فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب .

إذن فالعجائب فى الآيات هى آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ . ألا ينظرون إلى الكون . ومافيه من دقة صنع وهندسة بناء تكوينى لاتضارب فيه ؟ وهى آيات تنطق بدقة الخالق ؛ فهو العالم ، القادر ، الحكيم ، الحسيب . وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون : إنه ساحر ، وحين تتلى عليهم آيات القرآن يكذبونها . إذن هم لم ينظروا فى آيات الكون ليستنبطوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يلتفتوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التى جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وآخرها وقمتها آيات القرآن العظيم .

وحينما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه القضية ، تساءل : كيف تقولون . إنه سحر الناس فآمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنت ؟ . وحينما قالوا :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة النحل]

قال الحق :

﴿ ..لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾

[سورة النحل]

وقالوا :

﴿ وَقَالُوا أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) ﴾

[سورة الفرقان]

فيعلم الحق رسله أن يقول :

﴿ .. فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [سورة يونس]

وهنا يأمر الحق رسوله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل عرف عنه أنه يقول أو يتكلم بشىء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ أنهم خلق الله ، والله استدعاهم إلى الوجود ، لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب الكون أن تكون خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما هى فى خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل المؤمنون الأخذ بالأسباب فلن يأخذوا نتائجها ، وكل هذا لأنه عطاء ربوبية ولأنه خلق فلا بد أن يرزق ، والنواميس الكونية تخدم الطائع وتخدم العاصى ؛ لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لسنة الله تبديلا .

إذن فكفرهم لن يمنع عنهم نصيبهم من الكتاب الذى قَدَّر لهم ، من الرزق والحياة ، ماهو مسطر فى الكتاب الذى أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَـٰبِ .. (٣٧) ﴾ [سورة الأعراف]

أو ينالهم ، أى يصيبهم عذاب مما هو مبين فى الكتاب الذى أرسلناه ليوضح أن الطائع له الثواب ، والعاصى له العقاب ، فيقول الحق هنا :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

وساعة تسمع ﴿ يتوفونهم ﴾ تفهم أن الحياة تنتهى ، وتنفصل الروح عن الجسد فهذا هو « التوفى » ، فمرة ينسب إلى الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة ينسب إلى المَلَك ، ومرة يراد منه أتباع المَلَك أى جنوده يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، والأساليب الثلاثة ملتقية ؛ لأن ملك الموت لم يأت بالموت من عنده ، بل أخذ التلقى من الله ، فالأمر الأعلى من الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التنفيذ للرسل .

و « التوفى » على إطلاقه هو استيفاء الأجل ، فإن كان أجل الحياة فهو توفية بالموت ، وإن كان الأجل البرزخ وهو المدة التى بين القبر والحساب . إلى أن يجئ ميعاد دخولهم النار فهذا هو توفى أجلهم الثانى ؛ لأن كل إنسان له أجلان : أجل ينهى هذه الحياة ، والأجل الذى يأخذه فى البرزخ إلى أن يجىء الحساب .

وهذا لا يمنع أن يقال : إن قيامة كل إنسان تأتى بموته ؛ لأن للقيامة مراحل بدءا من القبر ونهاية بالخلود فى الجنة أو فى النار .

وحين تسألهم الملائكة :

﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

هم إذن يعترفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد غابوا واختفوا ولا يظهر لهم أثر .

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدِۭ ﴾

(من الآية ١٠ سورة السجدة)

وهم ـ إذن ـ يقرون غياب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم . ولكن هذه الشهادة لا تجدى لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن فى دار قهر لكل ما يريده الله ؛ ففى دار التكليف كان الإنسان حرًّا أن يفعل أو ألاّ يفعل ، ولكن فى الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الجزاء الذى يصيبهم ، ولن يتأبوا على الجزاء ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِى ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٌ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعۡفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨ ﴾

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر ﴿ كن ﴾ سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذى يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقى كله فى الجزاء .

إن الاقتداء بالأمم التى سبقت هو الذى قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التى سبقت كانت أسوة فى الضلال للأمة التى لحقت ، فإذا ما دخلوا لعنوهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان

يغربه بالجرم . ومن كان يزين له ، ومن اقتدى بـه . باللّه سـاعة يلتقيان فى السـجن ألا يلعن الأول الثانى ؟

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾ [سورة الأعراف]

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجتمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :

﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ .. (٣٨) ﴾

[سورة الأعراف]

فإن قلت الأخرى أى التى دخلت النار متأخرة كانت الأولى هى القدوة فى الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ ﴾ ، أى أن الأولى هم القادة الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا . ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ . وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا : ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ .

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يخاطبوا ؛ لأن الموقف كله فى يد الله ، وإذا ماقالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ فهؤلاء ، هذه رشارة إليهم ، فكأن القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون لربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ .. (٣٨) ﴾ [سورة الأعراف]

فقال الله لهم جميعاً : ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ .. (٣٨) ﴾ .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلت وأضلت . ونفهم أن الضِّعْف معناه «شيء مساوٍ لمثله» ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتم سواكم بالأسوة أيضاً ؛ لأنكم كثرتم عددهم وقويتم شوكتهم وأغريتم الناس باتباعهم .

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتم أيضاً ، وأنتم لاتعلمون أن من يحاسبكم دقيق فى الحساب ، ويعطى كل إنسان حقه تماماً .

وماذا تقول أولاهم لأخرهم ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

أى مادمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس «فذوقوا العذاب بماكنتم تكسبون» كأن المجرم نفسه ساعة يلتقى ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك تجنياً من الله ، ولابسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ماكسبتم .

ومعلوم أن التذوق فى الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ . لا ، إنّ الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب ، والحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو فى الجسم حساسية الذوق كالتى فى اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [سورة النحل]

وهذه هى الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تاثيراً، واللباس أشمل للجسد . (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكتسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعى فى التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولاتصنع، وفى السيئات يجاهد نفسه؛ لأن ذلك يحدث على غير ماطبع عليه، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعى، وهذا هو الخطر الذى يحيق بالمسرفين على أنفسهم؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

والحق يريد أن يعطى حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليعرف بجريمته، وهى جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأن من يرتكبها يلقى حكماً وعقاباً . (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) .

وقد عرفنا من قبل معنى الايات ، وأنها ايات القرآن المعجزة أو الايات الكونية ، وأى إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمانته ، وهذا الانسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً ﷺ لم يكن له من الجاه ولا سلطان ماينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الزخرف]

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يكذب الايات ويستكبر عن اتباع الرسول لاتفتح له الأبواب السماء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[سورة الأعراف]

وبذلك نعرف من هم الذين لاتفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء . . إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى نجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى . أما المكذبون فهم لايترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً : (ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) .

و«سم الخياط»هو ثقب الإبرة ، أى الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولاتدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطرالثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهى لاتدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين نأتى بالجمل ونقول له : ادخل فى سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل .

بعض الناس قالوا : وماعلاقة الجمل سم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضاً على الحبل الغليظ المفتول من حبال ، مثل حبال المركب إننا نجده سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصبابته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول :

ولـو أن مـا بـى مـن جـوى وصـبـابـة
عـلى جمـل لـم يـدخـل النـار كـافـر

لأن الجوى والصبابة التى يعانى منهما هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فلسوف ينحف وينحف ويهزل ، إلى أن يدخل فى سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا : إن دخل الجمل فى سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة .

﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والغاشية هى الغطاء ، أى أن فرش هذا المهاد وغطاءه جهنم . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الزمر)

إذن الظلل والغواشى تغطى جهتين فى التكوين البعدى للإنسان ، والأبعاد ستة وهى : الأمام والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ، والغواشى تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظلل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذا يعنى شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .

وجهنم مأخوذة من الجهومة وهى الشىء المخوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتى بالمقابل ليشحن النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون ، ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ؛ لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو فى مقدور النفس وليس فوق طاقتها ؛ لذلك أوضح لنا سبحانه أنه كلف بـ « افعل ولا تفعل » وذلك فى حدود وسع المكلَّف .

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق قد قال فى أهل النار :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ، ولا يتوقف الأمر على ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهنا أمران : سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم النار ، وهذا جزاء آخر ؛ فقال الحق :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

فى الأولى قال : - سبحانه -(وكذلك نجزى المجرمين) .

وفى الثانية قال : (وكذلك نجزى الظالمين) .

فكأن الإجرام كان سبباً فى ألا يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أن يكون من فوقهم غواش ، لهم من جهنم مهاد ، وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التى تكرهنا فى أصحاب النار وفى سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً ، وسبب بشاعة جزائهم ثانياً ؛ أن نتلهف على المقابل . فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقول الحق سبحانه وتعالى : «لانكلف نفساً إلا وسعها» جاء بين المبتدأ والخبر ، ككلام اعتراضى ؛ لأن أسلوب يقتضى إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود فى الجنة ، وجاءت «لانكلف نفساً إلا وسعها» بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع «والذين آمنوا» فهذا عمل قلبى ، ونسمع بعده «وعملوا الصالحات» وهذا عمل الجوارح ، وبذلك أى بعمل القلب مععمل الجوارح يتحقق من السلوك مايتفق مع العقيدة . والاعتقاد هو يسهل دائما السلوك الإيمانى ويجعل مشاق التكاليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أنى قد كلفتكم فوق طاقتكم ، لا ؛ فأنا لا أكلف إلا مافى الوسع ، وإياكم أن تفهموا قولى : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات» هو رغبة فى إرهاق نفوسكم ، ولكن ذلك فى قدرتكم لأننى المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف فى وسع المكلَّف .

ونحن فى حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فنجد المهندس الذى يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها ، فلا يحملها فوق طاقتها وإلا تفسد . وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف الآلة الصماء فوق ماتطيق ، أيكلف الذى خلق البشر فوق مايطيقون ؟ محال أن يكون ذلك .

إذن فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق الحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن غلق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فأحكم بأن ذلك في الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الافلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أن غيره يفعل مالايريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لايشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لايمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لالصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ«فعل» و«لاتفعل» وسبحانه لايكلف الإنسان إلا إذا كان قادراً على أن يؤدي مطلوبات الشرع ؛ لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مماتحتاج إليه الحياة ، لذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تظنوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذي يضع في موضع الشطط . فقال :

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الطلاق]

«قدر على رزقه» أي ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءَاتَـٰهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا ءَاتَـٰهَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الطلاق]

إذن لا تفترضْ وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش في حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوي دخلك ؛ لأن الله لايكلفك إلا ما آتاك .

ولننظر إلى ماآتانا الله ؛ لذلك لاتدخل في حساب الرزق إلا ماشرع الله ، فلا تسرق .

ولا تنهب ولا تختلس ولا ترتش ثم تقول : هذا ما آتانى الله ، لا ، لا ، عليك ألاّ تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت فى نطاق ما أحل الله يعينك الله على كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التى تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك ـ على سبيل المثال ـ وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا فى حدود ما فى طاقتك ، وكذلك يُحسّن لك الله ما فى طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا فى حدود ذلك .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه ؛ فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت فى الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تتركك النعمة ؛ لأن الدنيا أغيار ، وفى ذلك لفت لقضايا الله فى كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغنى قد صار فقيراً ، فلا شىء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتى إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق ، ونجد الذى لا يتأبى على قدر الله فى رزقه وفى عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفى الجنة يُخلى الله أهلها من الأغيار .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ